بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 27 الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق

الدرس: تفسير القرآن الكريم المبحث: سورة لقمان

التاريخ:07\12\2021 م كتبه: عبدالله ضيف الستري البحراني

ما زال الحديث في الآية الثالث عشر في قوله: ﴿وَإِذْ قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾

اتضح لدينا من البحث السابق أن هذه الآية المباركة معطوفة على مضمون الآية التي سبقتها، خلاصة المطلب والنتيجة: أننا آتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكراً لأنعم الله تبارك وتعالى، وحين جعلناه واعظاً لغيره، فهذا العطف يقتضي أن الآيتين ركزتا على كمال النفس وتكميل الغير، وهذان متلازمان، لا يمكن للنفس أن تكمل، ولا يسعى الإنسان إلى تكميل الغير، الأناني في مباحث المعنى والسير والسلوك لا قيمة له، فلا يكون ممدوحاً، الذي يسعى إلى كمال نفسه ولا ينظر إلى الغير هذا الأناني – في الواقع– لا يعبد الله سبحانه وتعالى، وإنما يعبد نفسه ويعبد الأنا. فلقمان الحكيم عليه السلام سعى لكمال نفسه ولتكميل غيره، فزاوج بين الكمال والتكميل، هذا ما يفيده العطف بين هاتين الآيتين.

كذلك عرفنا في البحث السابق أن نصيحة وموعظة لقمان لابنه مبرأة عن العيوب، لكونه حكيماً، وفي الوقت نفسه لا يكون متهماً في نصيحته، مرة إنسان ينصح إنساناً آخر، ويكون خلف هذه النصيحة فائدة تعود عليه، فواحد يأتي ينصحني أن أوزع على الطلاب شهرية، وهو يكون من الطلاب، هذه نقول لها نصيحة متهمة، هذه في حق لقمان الحكيم لا مجال لها؛ لأنه ينصح ولده، وينصح ابنه، والأب بالنسبة للابن شفيق، فنصيحته خالية من العيوب؛ لأننا آتيناه الحكمة، ونصيحته هذه غير متهم فيها؛ لكونها نصيحة أب لابنه، هذه من أفضل أنواع النصائح.

طبعاً هناك بحث بين علماء التفسير في اسم هذا الابن، هذا لا يقدم ولا يؤخر، فلا حاجة لإضاعة الوقت فيه.

الموعظة والنصيحة في هذه الآية المباركة بدأت بما يرتبط بالتوحيد، بما يرتبط بترك الشرك والابتعاد عنه، ونظراً لأهمية هذا المضمون نلاحظ أنه جاء في هذه الآية مؤكداً بمؤكدات:

المؤكد الأول: يقول: ﴿لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ﴾ إنَّ من أدوات التأكيد.

المؤكد الثاني: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيم﴾ هذه اللام من أدوات التأكيد.

المؤكد الثالث: تقديم الحكم على علته، الحكم نهاه عن الشرك، ثم ذكر العلة ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيم﴾ ذكر الحكم وتقديمه ثم ذكر العلة يؤكد المضمون في نفس المخاطب.

من هنا جاء بحث عند علماء التفسير، من هذا التأكيد استفاد البعض أن ابن لقمان كان مشركاً، وإلا لو لم يكن مشركاً كان ينبغي أن فيقول له لا تشرك أو يقول له الشرك ظلم فلا تشرك، لا يؤكد لا بإن ولا باللام؛ لما ثبت في علم البلاغة أن تأكيد الخبر يلقى لمن للإنسان المنكر، أما الإنسان الذي لا ينكر لا يلقى له الخبر مؤكداً، على حد قول الشاعر:

أَتاني هواها قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الهوى فصادفَ قلباً خالياً فتمكنا

إذا كنت أنا غير منكر، ذهني خالي عن الموضوع، فيقال لي: زيد قائم. فيثبت في ذهني، أما إذا كنت منكر، لا بد لهذا المنكر من مؤكدات تزيل الإنكار؛ لتثبت الحق فيه، فلو كان ابن لقمان موحداً لما احتاج لقمان إلى أن يؤكد له، هذا التأكيد كاشف عن أن ابن لقمان كان منكراً.

لكن هذه الاستفادة لا نقبلها، صحيح التأكيد إنما يكون في مورد الإنكار، لكن ينبغي أن نلتفت إلى نكتتين:

النكتة الأولى: أن موعظة لقمان لابنه، وكذلك -مثلاً- وصية الإمام الحسن عليه السلام لابنه، وسائر وصايا الأنبياء والأولياء لأولادهم ولأقاربهم وما شابه لشخص معين، يكون الموصى له والمقدم له النصيحة والموعظة هو في الواقع قنطرة للعبور إلى غيره، وليست من الوصايا والنصائح والمواعظ -بتعبيرنا الأصولي- المأخوذة على نهج القضية الخارجية، أنه خصوص هذا المخاطب، فمن خلاله يخاطب الإنسان في زمن كثر فيه الشرك، ظاهره وباطنه، فلا مانع حينئذ أن يؤكد، هذا لوحده إذا لم

تأتنا رواية أو دليل على أن ابن لقمان كان مشركاً، هذا لوحده لا يكفي. مضافاً إلى ذلك في كثير من الروايات من أسئلة ابن لقمان -يعني عندما ينصحه- يسأل بعض الأسئلة نستفيد أنه لم يكن من أهل الشرك.

النكتة الثانية: نحن نعرف بأن تخريج الكلام يكون على أسلوبين:

الأسلوب الأول: تخريج الكلام على مقتضى الظاهر، فمقتضى الظاهر أن المنكر نؤكد له، لكن في كثير من الأحيان نستعمل أسلوباً آخر، يسمى بتخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، فمقتضى الظاهر أن المنكر نؤكد له، فنأتي ونتعامل مع المنكر ننزله منزلة غير المنكر، أو غير المنكر ننزله منزلة المنكر، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾[1] هل يوجد أحد في البشرية ينكر أنه يموت! لا، لكن لما كان الطبع الإنسان يتعامل في هذه الدنيا معاملة الخالد فيها، ناسب بلحاظ عمله أن ننزله منزلة المنكر، فنؤكد له، فقد يكون ابن لقمان موحداً، لكن ربما يكون لديه بعض التصرفات التي تتناسب مع تصرفات أهل الشرك، فلذا نزله منزلة المنكر. فعلى كل تقدير مجرد التأكيد في هذه الآية المباركة لا يستفاد منه أن ابن لقمان كان مشركاً.

من جملة الأبحاث في هذه الآية المباركة، هو وصف الشرك بأنه ظلم عظيم، وهذه الآية في استدلالات أهل البيت عليهم أفضل الصلاة والسلام ترد ككبرى كلية، فعندما يستدلون بقوله تبارك تعالى في مباحث الإمامة: ﴿لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالمين﴾[2] فهذه تكون بمثابة الصغرى ليأتوا بعد ذلك ويقولون: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيم﴾ فهذه الآية، وهذا المقطع من الآية الذي في علم البلاغة وفي علم المعاني يسمى بالتذييل، هذا المعنى يصلح كبرى كلية في كثير من الاستدلالات والمناقشات والمباحثات، فأولاً: وصف الشرك بكونه عظيماً، تارة الإنسان في مثل هذه الأوصاف يصف مع المقارنة، فيكون شيء عظيماً بالنسبة إلى شيء آخر، وأخرى يصفه بمثل هذه الصفة في حد ذاته، فعظمته تكون مطلقة، والشرك في مقابل التوحيد عظمته من هذا القبيل مطلقة، غير مقيدة بقيد، وهي تتناسب مع ما تقدم في الآية السابقة ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ بالتدليل على أن البشر على نوعين، هناك نوع من

---

[1] الزمر 30
[2] البقرة 124

البشر يكون شاكراً لأنعم الله تبارك تعالى، وهناك نوع آخر من البشر يكون كافراً بأنعم الله تبارك وتعالى، سواء كان هذا الكفر بتقديم الشكر والطاعة لغير صاحب النعمة الحقيقية، كأولئك الذين يعبدون الأصنام، هؤلاء يقدمون الشكر والطاعة والعبادة لغير صاحب النعمة، وهذا ظلم عظيم، يقدم لك شخص النعمة فتشكر غيره، هذا من أسوأ أنواع الظلم، فكيف إذا كان هذا المنعم لم يقطع عنك إحسانه وإنعامه، ومع ذلك تجازيه بشكر غيره، من أسوء أنواع الظلم. الظلم الذي هو وضع الشيء في غير موضعه المناسب، ولذا يقال عن الظلم بأنه تجاوز الحد، نوع من الطغيان من تجاوز الحدود، تضع الأمور في غير موضعها المناسب، العبادة والشكر مكانه المناسب للمنعم الأصلي، وهو الخالق تبارك وتعالى، فأن يصنع الإنسان بيده آلهة، ويقدس هؤلاء الآلهة، ويقدم لهم الطاعة والشكر والخضوع ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيم﴾ أم كان هذا الشكر من الشكر الباطني -الشكر الظاهري هو أن نعبد إلهاً غير الله سبحانه وتعالى أو مع الله- فله مراتب، منها: الرياء الذي يرجع في الواقع إلى أن الإنسان لا يعبد الله سبحانه وتعالى خالصاً، بل يعبد الغير، قد يعبد الأنا، لمصلحته، هذا كله أيضاً الإنسان فيه لا يقدم الطاعة والخضوع والشكر لصاحب النعمة الأساسية.

من جملة الأمور المرتبطة بهذا المقطع، قد يقال: أنه في القرآن يوجد آيات متعددة ورد التعبير فيها بلسان ومن أظلم، ما معنى ومن أظلم؟ يعني ليس أحد بأظلم من هذا الذي سوف نتحدث عنه ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُه﴾[3]، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُه﴾[4] وفي سورة الأنعام ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِبا﴾[5] فهذه الآيات تدل على أنه يوجد ذنوب أعظم من الشرك، وهي منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، هي كتمان الشهادة، هي الافتراء والكذب، فكيف نجيب عن هذا السؤال؟ أن هذه الآية بحذف المفاضلة تدل على أن الشرك هو أعظم الذنوب، وهذا هو المتعارف عند علماء العقائد وعند الفقهاء في تعدادهم للكبائر، بينما تلك الآيات تقول: ليس أظلم من هؤلاء، هؤلاء أشد ظلماً، فاستعمال صيغة المفاعلة، صيغة المفاضلة، تدل على وجود ذنوب فوق الشرك وأعظم من الشرك، ونجيب عن هذا السؤال بجوابين في الدرس القادم.

---

[3] البقرة 114
[4] البقرة 140
[5] الأنعام 21